دراسة أبعاد الوطن الفنية والاجتماعية فى شعر البحرين المعاصر

صمد مؤمنى*

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٨/٢هـ ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/٢١هـ ش

الملخص

إنّ الذين تناولوا بعد الوطن الاجتماعى انقسموا إلى فئتين: الأولى، هم الذين تناولوا المرأة والوطن من منظور عاطفى داخلى، فنرى اهتمامهم إلى الوطن ساذجا حسيا، والثانية، هم الذين جعلوا بعده الفكرى أساس تجربتهم فنرى اهتمامهم إلى الوطن وقضاياه الإنسانية أعمق وأكثر، وتركوا اهتمامهم الرئيس إلى المرأة والطبيعة، وجعلوه فى خدمة الوطن والإنسان خاصة.ونشط أكثر شعراءها فى مضمار الإصلاح الاجتماعى، والدينى، والسياسى، والأخلاقى، واشتغلوا بالتربية والتعليم، نذكر منهم عبدالله زايد صاحب أول جريدة فى البحرين، وعبدالرحمن معاودة، وقاسم الشــرقاوى، وسيد رضى الموسوى، وملاعطيه جمرى، ومبارك خاطر، والشيخ منصور الشهابى، والآخرين الكثيرين، وجدير بالذكر أن نعدّ ميزات تجاربهم الشــعرية، منها: الأســلوب الخطابى، متابعة الوقائع، والمناسبات السريعة، وهدفها التعليمى والأخلاقى.يهدف هذا المقال إلى دراسة أبعاد الوطن الفنية والاجتماعية فى شعر الشعراء الذين ذكرناهم آنفا.

الكلمات الدليلية: الشعر، البحرين، الوطن، المرأة، الطبيعة، البعد الفنى والاجتماعى للوطن.

*. خريج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات طهران، إيران. Esmaili_email@Yahoo.com

المقدمة

أســهل ما يمكن أن نقدم الوطن هو مســاحة جغرافية مع جماعة من الناس بعلاقــات إنســانية، وثقافية، واقتصادية بيد أنّه تجب زيــادة العلاقة العاطفية بين الناس، وإحســاس المحبة إلى الآخرين وإلى الأرض كى يشــتمل الوطن بعدين أعنى المادة وما فوقها، لو أردنا أن نقدم للحبّ تعريفا حســب ما هو معروف بين الناس، نصــل إلى الحبّ للمرأة والذى يبدأ فى اعتقادنا بالحبّ إلى الأم.إذا يمكن القول بأنّ الوطن منســوج من الطبيعة والإنسان والعلاقات بين إنسان وآخر وبين الإنسان والطبيعة التى تحتوى على عناصر عامة وخاصة فى تعريف الوطن، ونحن لســنا وراء العناصر العامة وأما الخاصة منها فلها أهمية خاصة، وبما أننا فى بحثنا هذا وراء أرض البحرين وظاهرة النخل والبحر ذواتا الصلة بالإنســان، فنهتم بهما قائلين إن الذى يهمنا أكثر هو الميزة الأدبية لعناصر البحرين الطبيعية الخاصة.

النخل يرمز إلى انتشار الجذور فى الأرض ويصور المشاعر العميقة نحو الوطن والتعلــق بالأرض شــديدا والبحر تعبير عن رحلة نحو غايــة مجهولة ترافق القلق والاضطراب الداخلى والاستعداد للقيام والنهضة فى البحرين.ويعيش بجانب النخل والبحر فى البحرين الفلاح والبحار، أما الفلاحون فيعيشون معيشة صعبة وأكثرهم من الشــيعة، والبحارة يعيشون عيشــة خطرة وأكثرهم من الســنة، عاش البحر والنخل زمنــا طويلا متباعدين اختلافا للبيئات الجغرافية والمعيشــية والنزاعات المذهبية.فمن الطبيعى أن نقول إنّ الشــعراء السنيين لم يستخدموا رمز النخلة لعدم إدراكهم كنهها كما أنّ الشــعراء الشــيعيين لم يســتخدموا جيدا رمز البحر لكونهــم غيــر مدركين حقيقته، اقتــرب النخل مع البحر لحد ما حين اكتشــف النفط سنة ١٩٣٢م، ونشــأت حوله فرق عمّال الصناعة، وحلّ حبّ الوطن لديهم محلّ حبّ النخل أو البحر فلا بدّ للشــاعر أن يسير مسار النخل، والزراعة، والبحر، والغواصة وما من تجربة شعرية مرتبطة بالبحرين إلا ولها صلة بالنخل والبحر كما تتناول قضية الإنسان المظلوم والمضطهد.

حســب ما بين النخل والبحر من الميزات الطبيعية وحســب ما أشــرنا سابقا وصلة النخل مع الأرض مباشرة والأمن الذى يوجد فى الأرض دون البحر، نستنتج أن النخل أقرب إلى أن يعتبر وحده رمز الوطن ولو أنّه يرافق البحر دوما، للوطن

علاوة على الموقف الأرضى موقف إنسـانى، فإهمال النخل فى التجربة الشـعرية لشـعر البحرين المعاصر يؤدى إلى تجاهل موضوع الوطن وقضاياه الإنسـانية.أول مؤشر فى تحليل التجربة الشـعرية الاجتماعى هو العلم بالواقعية المسيطرة على الوطـن أولا، والعالم ثانيا؛ ويحتوى هذا العلم عنصرى الروح الذى يرتبط بالعاطفة الإنسانية والتفكر الذى يرتبط بقدرة الرسوخ فى الحقيقة وتمييز الشؤون المختلفة فالعلم الحقيقى موقف ينبع شـعور داخلى بقضايا الإنسـان ورؤية عميقة وباحثة عنها، وموقف كهذا يسير فى سبيل مستقيم ويميز الظالم من المظلوم فى حدود خاصة تسـمى المجتمع ويعيد الحقّ إلى صاحبه.لعلنا نرى الشـعور السلبية نحو الوطن، موقفا سـلبيا، لكنه لايتناسـب وجوهر الشـعر، لأن لأصحاب هذا الموقف تجربة شـعرية صادقة وأصيلة تزيل سـلبية موقفهم.فتناول إبراهيم عريض قضايا الإنسـان، حبّ عبدالرحمن معاودة العميق إلى الوطـن، تصوير جماليات الوطن، والافتخار بالحضارة الإنسـانية فى شـعر قاضى القصيبى، تمحور مشـاكل الوطن والإنسـان المظطهد عند على الخليفة و... كلّ هذا يدل على أنه لايعتبر الشـعور السـلبية نحو الوطن موقفا سـلبيا لأن هذه الشعور نابعة عن الواقعية وعن اهتمام الشاعر إلى واقعية الوطن.

بعد الوطن الاجتماعى

لـو أردنا أن نتعرف إلى شـعر البحرين المعاصر حقـا، علينا أن ندرس القيمة الثوروية لأعمال شـعراء النهضة الشـعبية فى الخمسـينيات، وبما أنّ هذا العقد من التجربة الشـعرية اقترن بأولّ حركة شـعبية منظمة فى تاريخ البحرين، فلا يمكن أن نترك الأشعار الوطنية، لأنّ لهؤلاء الشعراء دورا هاما فى تحريك النزعة الوطنية، منهم عبدالرحمن معاودة الذى يقول:

أبنـى أوال وانّتهـا لخريـدة ووديعـة الآبـاء فـى الأبنـاء □

مـا للغريب بهـا يعيـش منعّما أسـفا ونحـن بزمـرة الفقـراء □

أبنـى الجزيرة شـيبها وشـبابها ليـس العيـش تطيـب للجبناء □

هيا اقشــعوا حجب الظام وشمروا واســموا حقكمــو بلا اســتخذاء
(المعاودة، ١٩٦٠م: ٥٦)

يعتقد الشــاعر فى البيت الأول بأن الوطن أمانة ورثتها الأسلاف عن الأخلاف، وبهذا يوقظ مشــاعر حب الوطن الجماعى فى نفوس الناس، ويستفهم فى البيت الثانى اســتفهاما يريد منه التعجب والتوبيخ علاوة على إثارة الهمم، لماذا يعيش الأجنبى فى لهو ودلال بأرضنا ونحن أبناء هذه الأرض نعيش بؤساء ثم يخاطب فى البيت الثالث كلّ مواطنيه شــابا كان أم شيبا، قائلا: لايصفو العيش للجبناء ويريد منه نهوض الأمة وإزالة الخوف عنهم، وأخيرا فى البيت الذى يضمر قصده فيه أى الثورة، يكشفه قائلا: انهضوا وأزيلوا ستار الظلام وخذوا حقوقكم بلا توان، ومن ثمّ هذا الصراخ الثــوروى المطنطن فى اجواء القصيدة ينبع عن واقع المجتمع، ومن هنا تصبغ تجربته الشعرية صبغة اجتماعية، لأنه يدعو على أساس الواقع مواطنيه إلــى عمل اجتماعى أى الثورة.لعبدالله زايد قصائد لعبت دورا هاما فى إثارة القيام الشــعبى والتعبير عن آمال الوطن وآلامه ولو أن لأشــعاره قليل أثر أمام معاودة لكنهما ذوا نزعة واحدة، ينشد زايد:

يا أيها العرب انهضوا واستبســلوا إنّ الحيــاة تزاحــم وجــدال
إنّ العــرب مصيرهــا فــى كفّها تُســدى النفوس وتُبــذل الأموال

خاطــب زايد العرب كلهــم ولا الوطن كشــعب واحد، ويدعوهــم كى ينهضوا ويستبسلوا، دعوة إلى الثورة والقيام الشعبى أمام الظلم والاستعمار، يقول فى البيت الثانى: مصير كل شعب بيده ويكنى بهذا القول طالبا من الشعب العربى أن يملكوا مصيرهم ويكتبوه بأنفسهم إذا نرى زايدا يستخدم الواقع فى تجربته الشعرية وخاطب جميع الشعوب العربية كأمة واحدة بدل أن يخاطب شعب وطنه وحده.

اهتم شــعراء كثيرون إلى جانب معاودة وزايد، بالوطن وأصبحوا لسانه المبين، ويزخر شعرهم علاوة على الاهتمام بالواقع من معانى الغضب والشكوى من وجود وتدخل الاســتعمار والأجانب فى الوطن، الحرية، الوحدة الشعبية وتحقيق الوحدة العربية إثرها نصرة فلسطين والجزائر وكلّ الأراضى العربية متزامنا القضايا الوطنية. خمد الشــعر وهو لســان هذه الحركة المبين إثر تأميمها أواســط الخمسينيات وأصبح محبوسا فى الصدور إثر امحاء نداء الحرية بضع سنين، ونرى أفول شمس

الاستعمار فى الستينيات، وتراجعت انجلترا عن أراضى البحرين بحيث استقلت البحرين سنة ١٩٧١م ولايهتم الشاعر بعد استقلالها بقضية الاستعمار والتدخل الأجنبى فى شؤون الوطن إلا من عاشوا الخمسينيات، وبعدها:

إنّ عصر الانتداب قد مضى لم يعُدْ فيك دخيلٌ أجنبى
فاستقلّى والبسى أحلى المُنى نصرك اليوم انتصار العرب

وبعد أن يخبر الشاعر فى البيت الأول عن نهاية عقد التعلق وخروج الأجانب من الوطن ويعدّ فوز وطنه فوز العرب كلهم فهو يبدل فوز شعبه إلى فوز قبلى عنصرى علاوة على اهتمامه باستقلال البحرين، والذى يمكن أن يفسره فى عداد الوحدة العربية.كما قلنا نجد هذا النوع الأدبى (أواسط القرن العشرين) عند شعراء عاشوا الخمسينيات مع مصائبها كلها، هم الذين هجوا الاستعمار، وشكوا حضور الأجانب، ودعوا إلى الثورة، ويصرخون فرحا، ويعتزون بأنفسهم حاليا.

ونرى الشعراء الذين عاشوا الخمسينيات، والستينيات كلتاهما إنما عبروا عن فرحهم وفخرهم وراء خروج الاستعمار دون أن ينفذوا إلى حقائق شؤون الوطن الخاصة أما شعراء الستينيات وما بعدها، تعمقوا فيما حدث حولهم وتناولوا الوقائع من كلّ الجهات ومشوا وراء كشف الحقائق ونجدهم واقعيين بحيث غلب البعد الفكرى فى شعرهم على البعد العاطفى. تناول الشعراء البحرينيون قضية فلسطين من الخمسينيات إلى اليوم ويترأسهم إبراهيم عريض فى حماسة "أرض الشهداء" والذى يهمنا إيجاد العلاقة بين قضية فلسطين والبحرين، وقد حاز بهذا الافتخار شاعر الستينيات بالتأنى، وإحساس الواقع حوله، إنه وجد بين قضية فلسطين – هجوم الأجانب - وبين ما حدث فى البحرين عهد الاستعمار صلات، ولذا تجاوز حدود أرضه وتناول قضية فلسطين كواقع شعبى ولعله يربط بين البحرين وفلسطين.ينشد غازى القصيبى مخاطبا الأراضى العربية:

بالأمس قد قطع اليهود يمينها أيرى الخليج غدا ضياع يسارها
(القصيبى، ١٩٧١م: ١٠٤)

ينظر الشاعر إلى القضية نظرة شعبية ويجعل العرب مواجهين اليهود ذاكرا اليهود فى الشطر الأول ويقصد به اغتصاب أرض فلسطين، ويقول فى الشطر الثانى مستفهما استفهام استيقاظ وتحريک الهمم كيلا نفقد الضفة الغربية للأراضى

العربية بشـــاطىء الخليج الفارسى.جعلت قضايا فلسطين قلب القصيبى مؤلما كما جعله التجاهل العالمى متحيرا فضاق صدره بها ولم يألٍ جهدا فى ســـبيل الوعى الإنســـانى ومن ثم يصور فلسطين تصويرا دقيقا فى إحدى قصائده مبينا الظروف المسيطرة على العرب:

يذبحُنا "شارون" كالأغنام
يشتمُنا الخاخام
يصدُّ عنّا عَمُّنا الحَنون "سام"
ويرقبُ العالَمُ ما يجرى لنا
كأنّه فِلمٌ مِن الأفلام
(القصيبى، ٢٠٠٢م: ٨٩)

يحسّ غضب الشـــاعر المستتر فى الأبيات كلها؛ يشرح تماما أن اسرائيل تقتّل الناس برئاســـة "شارون" ويدعمه الخاخام ويرى العم "سام" جد الأمريكان الكبير، ويصـــور بكلامه "يصـــدّ عنا عمنا الحنون ســـام" دعم أمريكا لإجراءات إســـرائيل المضادة للبشـــرية، ويستخدم الضمير المجموع "نا" مشـــيرا إلى أنّ العرب كلهم ضحايا هذه الجرائم لا فلســـطين وحدها، ويقـــول فى البندين الأخيرين إنّ العالم كله يعلم ظروف فلســـطين لكنها شبه بفلم يسلّيهم، إذا ينقد لامبالاتية المجامع الدولية ويبلغ النقد ذروته لما ينشد:

مِن قمّةٍ ... لِقمّةٍ ... لِقمّةٍ
نصرخُ بانتظامٍ
"نَحن معَ السلام"
(المصدر نفسه: ١٢٥)

فيقول موضحا: اهتماما بالظروف العدوانية واللاإنسانية الموجودة فى فلسطين، ما صرخة حماة السلم إلّا دعاية إعلانية تنفعهم، فالقصيبى كشاعر وقبل كل شىء كإنســـان يفهم آلام مواطنيه، ولما رأى تجاهل العالم والشعب العالمى؛ لايجد بدا إلا ويصور آلام مواطنيه ولما لايجد دواء لدائه يصور أمانيه شعرا:

فى كلِّ يومٍ...
ألفُ مَعركةٍ...

وأحلمُ أن يزورَ الخبزُ...
حلقَ الجائِعين
فى كلِّ يومٍ...
ألفُ معركةٍ ...
وأحلمُ أن يزورَ الأَمنُ
جَفنَ الساهرين
وتقولُ زوجى:
«نَمْ»...
وعينُ الظُلم يقظَى لاتَنام
وتقولُ زوجى:
«كُلْ»...
وجُلُّ الناسِ ما عرفوا...
سوى طعمِ الصيام
(القصيبى، ٢٠٠١م: ٤٨-٥٠)

أدت قضية فلسطين إلى أن اهتم الشاعر البحرينى خصوصا وشعراء العرب عامة إلــى الحقائق الاجتماعية والوطنية والإنســانية أكثر من أى زمــان آخر ونادوا نداء الاستغاثة أمام الظلم والاستعمار والحرية الإنسانية، ويمكن القول إنّ شعراء الواقعية الجديدة اســتطاعوا أن يروا فوق الحدود الجغرافية بنظرتهم الإنســانية، وأن يفكروا عالمين فى موضوعات كالفقر وغنى الاستعمار، الاستقلال والجوع و... لو مزجنا بين الموضوعات الثلاثة: الاستعمار، البحرين وفلسطين من منظار شعر البحرين المعاصر لوصلنا إلى قضية الوحدة العربية، لأن الشعر كما قلنا تجاوز حدوده الجغرافية ونظر إلى القضايا الحالية نظرة قومية وبما أنّ البحرين تاريخيا وثقافيا تحسب جذور العرب القحطانى ومولده، فحظيت باهتمام الشــعراء البحرينيين لاتحادها مع ســائر الأمم العربية، وكان هذا الاتحاد الكبير طيل التاريخ تسبب عن قلق الشاعر البحرينى بل والشخص البحرينى، يقول عبد الرحمن معاودة:

الوحدة الكبرى هى الهدف الذى
نسعى لنبلغه صباح مساء
(المعاودة، ١٩٦٠م: ١٦٥)

وصل الاشـــتياق إلى العروبة لدى الشعراء البحرينيين لحد، لعبوا دورا هاما فى اختيار أحمد شوقى كأمير شعراء العرب وأهدوه نخلة ذهبية بأكمام وأثمار فضية وهى رمز العرب عند البحرينيين وأنشدوا له أبيات:

حياک من دارنـــا البحرين لؤلؤها والنخل إذا بســـمتْ فيه الأكاميم

فإنّا نحبّک باسم العرب أجمعهم فحقها فى بطـــون الصحف معلوم

يبدأ الشاعر كلامه بالتحية والسلام والهدية ولو أمعنّا النظر إلى كلمات النخل واللؤلؤ والأكاميم لرأينا رمزا إنســـانيا للعرب فى البحرين كما أنه سمة من سمات الحبّ للعروبة ويظهر فى البيت الثانى جذور العصبية العربية وإثارة القومية العربية ونرى حبهم لأحمد شوقى لأجل العرب والقومية العربية ثم يبالغ فيها ويجرها إلى التاريـــخ بحيث حقّها معلوم فى الصحف وربّما نســـتنتج أنّ حبّ العروبة والقومية والوحدة العربية بلغ حدا يستغلون اختيار أحمد شوقى كأمير شعراء العرب وصولا إلى عصبيتهم وقوميتهم، إذا الشاعر الواقعى يرتبط بين واقع الوطن والعالم برؤية عامة، هى من ميزات الشـــعر الحرّ، ويستغل جميع الأشياء للوصول إلى العروبة أو الوحدة العربية.

إنّ مؤشر حركة الشعر الحرّ فى البحرين ظهوره عن عمق الواقع وقضايا الوطن والمواطنين ومشـــاكله، لو تأملنا فى تجربة الشـــعراء الشبان البحرينيين لرأينا أنه يتمحور حول ثلاثة محاور رئيســـة: الحرية، الخـــلاف، الحرب الطبقية والقمع، أما الحرية فهى موضوع الشـــعر الحرّ الرئيســـى.ونعلم أنّ لتحريـــر الوطن من مخالب الاستعمار أهميته، لدى أجيال الستينيات، ورأينا أن الاستعمار زال واندثر والذى شـــغل به هذا الجيل، هو الحرية السياســـية والاجتماعية والفكرية ونســـتطيع أن نحـــدده فى حرية البيان الـــذى ينبع من الواقع ويرتبط بالظـــروف الراهنة وكان الشـــعر المعاصر على خبر من دور لفظة الاستيقاظ والحركة؛ فشكلت الحرية فى البيان قسما رئيسا من مطالب الشاعر.ويجد بالذكر أنّ الظروف الصعبة والاختناق الداخلى أواخر الســـتينيات أدت إلى اهتمام الشـــعراء بواقع المجتمع المرّ وطالبوا الحرية المدنية والأهمية القصوى هنا لحرية التعبير، لأنهم أدركوا واقع مجتمعهم المرّ البشع والصمود أمام هذه الواقعية، يدلّ على رفضها والسعى لتغييرها، وندرى أنّ مادة الصراخ؛ الكلمة، لأنّ الإنســـان لايســـتطيع الصراخ والنجاة إلّا بمســـاعدة

الكلمات.ولهـذا أصبحت الكلمة فى خدمة حرية التعبير فى الشـعر الجديد وذات أهمية قصوى.

آه كم تاهت معانينا وزيفّنا العبارة
ورفعنا فوق هامات الحروف
خطبا جوفاء... صفّقنا طويلاً لشعارات التجارة
وتساقطنا عرايا
لاصلاة الفجر تجدينا ولا غسل الطهارة

يشكو الشـاعر علما بدور الكلمات وقيمتها عن استخدامها المخطئ واستخدم الضمائر مجموعة لكى يفيد شعوره السلبية شمولا ويبدى عن جلاله فى مستوى المجتمـع الواقعى.ويعتقـد أنّ الأحاديث كلها لا قيمة لهـا ويعبر عن كلامه هذا "بزيفنـا العبارة " و"تاهـت معانينا" إنه يقدس الكلمـات والعبارات بحيث يعادل عنـده كفـران الكلمات مع رفض العبـادات ويقول: «لا صلاة الفجـر تجدينا ولا غسـل الطهارة.» ففى رأى الشاعر استخدام الكلمات فى غير مكانها كفر عظيم لا يغفر، ويمكن أن يدلّ على يأس الشاعر من تغييز الظروف بحيث لايجديه الأمور المقدسـة والمعجزة.قد يعجز الشـاعر أمام واقع الوطن ولا رجاء لديه فى التغيير ويعبر عن ضعفه فى تغيير الظروف وربّما يسلب الروح الثوروى من المجتمع، بلغ القصيبى إلى مثل هذا اليأس وينشد بنظرة سلبية:

أنا يا رفاق الحروف
جبان كأرنبة لاأطيق حياة السجون
ويرعبنى المخبرون
وأكره لقيا المنون
وأهوى الخلاص
وأمقت صوت الرصاص
أنا أعشق الشعب لكنّنى
أخاف من السادة الحاكمين
(القصيبى، ١٩٧١م: ۴٠)

غلـب اليأس والضعف عليه حتى ترک نفسـه ويقدمها جبانا كأرنبة، تعشـق

الحرية والخلاص لكنه لايطيق السجون؛ يعشق قومه وهو يخاف المخبرين، فنرى تناقضا روحيا سيطر عليه طيل القصيدة، يبدو من سياق القصيدة أنه يسير مسار الصمت والتلائم مع الظروف نتيجة الخوف المسيطر عليه، على أنّه لايفكر فى تغيير ظروف المجتمع بل ويوحى إلى مخاطبيه موجة شعور سلبية وكلها نابع عن الواقع، نجد مثل هذه العبثية العميقة وقبول النكسة لدى عبدالرحمن رفيع:

أمّا آمالنا فتلهو بنا
مثلما يلهو بنا لمع السراب
لن يرى الإنسان وجه النور أو ظلّ الحقيقة
(الرفيع، ١٩٧٠م: ٣٧)

إنه يرى الجميع ألعوبة فى أيادى الآمال؛ آمال كلمع السراب لها ظاهر خلب وباطن عبث، ونرى لون اليأس فى الشطر الأخير ظاهرا تماما لأنه يعتقد أنّ الإنسان لن يرى وجه النور ولا ظلّ الحقيقة، فالظلام والغبرة محضة لديه وما من تغيير هناك ومن المؤكد أننا لانتوقع من شخص كهذا شيا إلا قبول الفشل وعدم المحاولة لبناء واقع أفضل.وينشد مؤكدا هذا الموضوع:

غير أنّه لابد من كأس الهزيمة
(المصدر نفسه: ٣١)

يقع عبدالرحمن رفيع فى خاتمة الشعراء الرومنطيقيين ويمكننا أن نقول: الشعور السلبية هى أساس تجربة شاعر رومنطيقى لمواجهة الواقع المرّ، وشعراء هذه المدرسة الأدبية لايرون طريقا للخلاص من الواقع إلّا الخيال والحالة النفسية، فالشاعر الرومنطيقى لايجد بدّا لحلّ مشاكل الواقع وما يعبر هو إلّا عن عاطفة ومشاعر نفسية، وليس أمام الواقع الصعب المرّ إلا وله شعور سلبية ومظلمة ولانرى حلا لهم إلّا اللجوء نحو الطبيعة أو الشؤون المتافيزيقية.لكن الواقعيين لايخوضون فى اليأس ولا هم غير مبالين بالواقع بل يعبرون عن أحاسيسهم الداخلية ويختارون طريق الصمود والثورة وينقلون إحساسهم إلى المجتمع، بل وإلى الإنسان جميعا، ينشد قاسم حداد بهذا المنظار قائلا:

يا أيها الإنسان
نحن أمام صفحة جديدة من دفتر الأحزان

فلنكتب التاريخ من ضميرنا
وليسقط الجبان
(حداد، ١٩٧٠م: ٥٥-٥٤)

إن الشـــاعر يفهم الواقع ويرى أنّ ظروف الوطـــن الحالية مليئة بالآلام، ويصور الليالى مليئة بالهموم والأحزان معتقدا أنّ أمامنا صفحة جديدة ومستقبلا جديدا، وبهـــذا يثير الهمم متأثـــرا بموقف إيجابى وثوروى، يأمرنـــا أن نتصفح التأريخ فى أنفسنا وواضح أنّه يقصد بناء مستقبل ومصيرنا بأيدينا وينفخ فى صدور الآخرين، الحماس والغيرة.إذا يريد الشاعر تغيير المستقبل رغم قبوله الواقع الحالى ويمنح تجربته الشعرية بعدا اجتماعيا تاما باستخدامه ضمائر وأفعال الجمع كما ينفخ روح الثورة فى صدر المجتمع.فقاســـم حداد اتخذ واقعا اجتماعيا ودعا العزم الجماعى قاصدا أن يكتب الناس واقعهم الاجتماعى الأحســـن بيدهم، فامتزج شعور الشاعر السلبية مع رغبة التغيير والثورة وبقى هذا الروح الثوروى كإحساس إيجابى.

لوقارننا قصيدة قاسم حداد هذه مع قصيدة عبدالرحمن رفيع السالف ذكرها أو مع قصيدة غازى القصيبى ولهما تابع رومنطيقى لرأينا أنهم وإن كان لديهم شعور مشـــتركة بالوطن لكنهم اختلفوا حول المستقبل، اقترب شعراء الواقعية الجديدة فى البحرين إلى مســـتوى الواقع بتجاربهم الشعرية الكاملة، فنية كانت أم نفسية وتعمقوا فى الواقع الراهن أكثر من قبل، فلا تناقض فى أشعارهم كما شاهدنا فى أشـــعار القصيبى واســـتطاع أن يكون ذا موقف وهدف بإدراك الواقع والتأمل فيه وأبـــدى عن موقفه هذا فى تجربته الشـــعرية ونقله إلى مخاطبيه، فموضوع هؤلاء الشـــعراء البحرينيين المعاصرين وموقفهم ودراســـتهم واضح جدا، ينشـــد يوسف حسن وهو يملك الأوصاف المذكورة:

مزّقوا أوطانكم
بصّقوا فى وجهكم
لوّثوا تاريخكم
غيروا وجه الخرائط
(الديوان: ١٥١)

نواجه فى هذه القصيدة كثرة أفعال الأمر وهى تدلّ على وضوح موقفه وهدفه،

إنّه يهاجم الواقع دون ســتار ويريد إبطال التأريخ بحيث يكنى به عن كتابته من جديــد ويعنى التغيير والإصــلاح ويصرح به دون أى شــكّ وتناقض ويطلب من الجميع هذا التغيير وهذا يعنى وضوح الموقف والهدف.يقول:

أرفض أن أكون حجراً
أو قبضة تمسک بنيانكم المنهار
أرفض أن أبيع أو أباع
حتى ولو حوصرتُ
وأغلقت فى وجهى الدروب
حتّى ولومُنعتُ عن تنفّس الهواء
وأوقفتنى الشارة الحمراء
(المصدر نفسه: ۱۵۵)

يرفض الشاعر أن يكون كسلعة تباع أو كلبنة فى بناية الظلم والظلمة بل يريد أن يكون إنسانا ويعلن غيورا أنه يصطبر على عقده واعتقاده ولو منع عن التنفس الذى هو حقّ كلّ موجود، له موقف وهدف ويتحمل فى سبيل تحقيقه كلّ ضزيبة ولو باهظة فالشــاعر ينفخ روحا إنسانيا وثورويا ويصبغ بصبغة اجتماعية وإيجابية، علاوة على الإيضاح وموقفه الصامد.

يتمركــز الواقعيون على واقع المجتمع وبما أنّ الواقعيين البحرينيين اعتمدوا علــى واقع مجتمعهم بعــد خروج الاســتعمار فدخلت موضوعــات الفقر، والألم، والجــوع، فى أشــعارهم، لأنّ مثل هذه الموضوعات موجــودة فى أرض البحرين، وبما أنّ ظاهرة الفقر والغنى أو الألم والجوع لاتختص بالبحرين وساكنيه بل قضية إنسانية عالمية، فنرى الشاعر ينظر إلى القضايا الإنسانية نظرة عامة وعالمية.

أنا الإنسان فى شتّى بقاع الأرض
أنا جمع من الفقراء والبؤساء والمرضى
وتاريخ من التشتيت والكبت
أخاطبكم أحبائى
وفى حلقى مياه البحر والمسمار فى جوفى
(خليفة، ۱۹۹۴م: ۱۴۶)

يقدم الشـــاعر نفسه فى الوهلة الأولى إنسانا ثم يضيق عرض الدائرة وهو جمع من الفقراء والبؤساء والمرضى، لأنّه من الواقعيين وأحسّ الواقع بنفسه واتحد معه وما الواقع الموجود إلّا الفقر والمرض، إنما يحمل الشاعر معه تأريخا من الاضطراب والقمع ويقول فى الشـــطرين الأخيرين كنائيا: أتكلم معكم رفاقى عطشانا جوعانا ونـــدرى أنّ ماء البحر مالح ولايدفع العطش بل يكثـــر غلّة النفس كما يكنى عن جوعه الشـــديد بالمســـمار فى جوفه، فموضوعات القصيدة الرئيســـة هى الإنسان والفقـــر والجوع، التى تنبع عن الواقع الراهن وتبحث وراء تصويره ونعلم أنّ معانى الفقـــر والجوع عامة والاقتصاد خاصة من المعانى الماركســـية، فبإمكاننا أن نحلل مثل هذه القصائد حســـب المعتقدات الماركسية وندرسها حسب أسسها.فالشاعر الواقعـــى يرى وظيفة الكلمات فى التعبير عن الواقع فيهمه قضايا الواقع، ولو واجه القمع والاختناق، لصور بشـــعوره الثورية مهتمـــا بوظيفة الكلمة، الظروف الراهنة التى هى القمع والدمار ويتناول الواقعية بلسان آخر.

يولد الشاعر ولا يعطونه الفرح
لكن يعدّون له السجن والنعش والمقصلة
(حداد، ١٩٧٦م: ٧٨)

يعلن الشاعرشـــاكيا؛ أخذوا عنه الفرح، وهو نابع عن الواقع المرّ ثم يشـــير إلى قضية القمع ويذكر آلاته مفصلا، فالشاعر الواقعى يصور الواقع أنى كان، فإنه يصرخ وفى صراخه روح، وروى، وتضحية، وتفان.

حين تعلّمت "لا" تعوّدت أكل السجون
(الشرقاوى، ١٩٧٥م: ٣٥)

تعلم الشـــاعر "لا الثورية" وذاق حلاوة طعمها، تعنى هذه اللارفض الواقع أمرّ ورفض القمع والصمود أمامه والحركة نحو التغيير والإصلاح والثورة، يعتقد الشاعر بها واعتاد الحبس فى سبيل عقيدته ويرى هذا القمع تافها أمام غرضه الأصلى.

يتكلـــم الشـــعراء الواقعيين الجدد عن ظـــروف المجتمع الداخليـــة ويهملون الأجانب، يلهمون موضوعاتهم عن الواقع لتغييره والوصول إلى واقعية أكثر جدارة وهـــو مرتبط أخيرا بالوطن فى كل أبعاد هو والآن نريد أن نعلم هل للوطن علاوة علـــى بعده الاجتماعى وقضاياه الموجـــودة بعد آخر وبعبارة أخرى هل للوطن فى

التجارب الشـعرية ولـو واقعية بعد آخر غير البعد الاجتماعـى والواقعى؟ الجواب إيجابى؛ بل ولنقل أنّ أية تجربة تسـمى شعرية لما احتوت على البعد الفنى إلى جانب الأبعاد الأخرى.

البعد الفنى للوطن

لا مفهـوم للوعى الواقعى من البعد الأدبى إلّا وأن يرافق الوعى الفنى، فالوطن من البعد الفنى واقعية مرئية أثارت الشـاعر بجمالها الطبيعى كى يصف من جهة وهو واقعية اجتماعية تحتوى الأبعاد الاقتصادية، والسياسـية، والثقافية من جهة أخـرى، فالوطن من وجهة نظر فنى مزيج من الواقعيات الثلاث: الواقعية المرئية، والاجتماعية، والداخلية التى تشـمل عواطف الشـاعر إلى الوطن ولها مفهوم فوق ظاهره.وكما أشـرنا سـابقا العناصر الهامة التى ترمز إلى الوطن فى البحرين هى النخل، والبحر، وخاصة النخل، ففى دراسة البعد الفنى يجب الاهتمام بهما، لأنّهما فى أقل المستويات يعبران عن واقع الوطن المرئى، وربما يبحث من اقتران النخل والبحـر عن معان عميقة وراء معناها الظاهر، علينا أن ندرس الشـكل والمضمون معا، لأنّ للوطن شـكلا خاصا كما له معان داخلية خاصة، ويجب دراستها فى كلا المسـتويين.ومن ميزات شـعر البحرين المعاصر اقتران النخل والبحر فنيا، وهذه ظاهرة حديثة ولايريد الشاعر من هذا الاقتران إلّا تصوير طبيعة الوطن:

والنخـل وارفـة الظـلال كأنّهـا جيـش مكثف بالخليج معسـكر
تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا فتمـرّ كأحـلام اللذيـذ وتخطر
والبحـر يهديهـا اللآلـى زينـة وتجـارة فيهـا الغنـى يتوفـر
(الحبشى، عبدالله: ٢١١)

اسـتخدام ظاهرتى النخل والبحر وتفاصيلهما فى أى طور من شـعر البحرين يرتبط بلاوعى الشاعر مباشرا، لأنه ولد فى بيئة ونشأ فيها يعيش الناس عن طريق الزراعـة والبحارة، ونعلم أنّ زراعة البحرين زرع النخيل فيلعب النخل والبحر دورا هاما عند الشاعر البحرينى كعاملى الحياة المقدسين الجميلين، سواء أكان الشاعر رومنطيقيـا أم واقعيا، قويا كان أم ضعيفا، متأثرا بالبيئة.فالبيئة التى يسـتخدمها الشـاعر البحرينى فى معان مختلفة هى النخل، والبحر، وتنبع عن لاوعيه، وكان

أثرهما شـديدا فى مجتمع البحرين بحيث قسـم الناس إلى الفلاحين والبحارة، فامتزاج النخل والبحر فى التجربة الشـعرية يعنـى امتزاج هاتين الفئتين وأخيرا وحـدة المجتمع.عندمـا يصبغ امتزاج النخـل والبحر صبغة فنيـة جعلت المرأة كحلقـة وصل بينهما.وبدخـول المرأة فى التجربة الشـعرية يصبغ امتزاج النخل والبحر صبغة عاطفية ويصبح اقترانا نفسـيا، يفيد حضور المرأة معانى كبيرة إلى ظاهرتـى النخل والبحر الطبيعيتين.أولّ من أعطـى امتزاج النخل والبحر معانى عالية ولونا فنيا، على الخليفة وأدّى وظيفته فى ديوانه الأول "أنين الصوارى":

كلّ آبائک عاشوا للنخيل للحبال

(خليفة، ١٩٩۴م: ۴٧)

يبالغ الشـاعر فى معانى النخل والبحر بحيث يرى سـبب حياة الماضين هو النخل والبحر، وهذا المعنى معنى وطنى وهناک نقطة هامة أخرى ألا وهى تجربة على الخليفة العاطفية الفاشـلة فى التقاء المرأة التى تلعب دور الوسـيط بينهما وبما أنّ تجربة الشـاعر فى مواجهة المرأة فشلت، فلن يستطيع أن يوجد الاقتران الواقعى بين النخل والبحر، لأنّه فقد الوسـيط بينهما، فدخل إلى شـعر البحرين المعاصر عناصر ثلاثة: المرأة، والنخل، والبحر؛ وكلها يرمز إلى بعد من أبعاد الوطن.

وتجسّد وجه امرأتى

مصافحة البرق، الموج، النخل

(القائد، ١٩٧۵م: ١٠)

فيتجسـد أمام عينى الشاعر وجه امرأته حين يرى البرق والموج والنخل، هنا امتـزج عناصر ثلاثة: البرق، الموج، والنخـل ويذكّر كلّها المرأة فى الأذهان ونعلم أنّ النخـل والبحر يرمزان إلى أرض البحرين طبيعيا وإذا امتزجا مع البرق لمحن إلـى وجه المرأة المحبوب وبهـذا امتزج بعد الوطن جغرافيا مـع بعده العاطفى، فاسـتطاع الشـاعر أن يوجد اقترانا لفظيا ومعنويا بين النخل والبحر والمرأة وبما أنّ الوسـيط (المرأة) أشد بقاء فيسـيطر بعد الوطن العاطفى على الشاعر فتأخذ العناصـر الطبيعية المذكـورة معانى فوق ظاهرها.النخـل أول رمز للوطن وأهمه والبحر مقرونا بالعيش الخطر رمز حركة الناس والمواجهة مع مشاكل الواقع.

أحيانا جوهرة امتزاج النخل الوطن، والبحر (حركة الأمة) قيام المظلومين أمام

الظالميــن ويعلو هذا القيام إلى أكبر مســتواه باقتران عنصر المرأة.من الذين تركوا أعمالا جيدة فى الوحدة بين العناصر المذكورة الثلاثة؛ سعيد عويناتى الذى ينشد:

كان الشارع بحراً يتدحرج فى ذاكرة الطفل
العائد تواً من أصقاع العالم
مخبواً فى ذاكرة الشجر الدلمونى الراعف
من يدرى ما لون الشجر الدلمونى؟
ما لون اللغة الدلمونية ؟
(العويناتى، ٢٠٠٢م: ۴٠)

يرمــز الطفل هنا إلى مســتقبل الوطن أو نفس الشــاعر، علــى كلّ، يتدحرج الشارع بحرا فى ذاكرة الطفل، البحر رمز حركة الأمة أمام المشاكل وتدحرج البحر يرمز إلى موقف الشــاعر الثوروى على هذا الأساس يرى الطفل فى ذاكرته الناس خرجوا إلى الشــوارع ويهتفون كبحر مواج، والشــجر الدلمونــى الراعف يعبر عن النخل الراعف ونعلم أنّ النخل رمز الوطن ورعافه يدل على آلام الناس والذى قد خبا فى تصوره الثورة.فى الشــطر الرابع يسأل من يدرى ما لون الشجر الدلمونى؟ فى حين أشــار إلى لونه الدامى فى الشــطر التالى وهذا الاســتفهام يدل على أن الشــاعر يعتقد بألايكون شــجر الوطن داميا، لكن لما لم يدرک أحد أساســه إلى الآن اســتفهم إنكاريا، كى يدل على أنه لايوجد من يعرف لون الوطن الواقعى.ثم يســأل فى الشطر الأخير ما لغة شــجر الدلمونى، واللغة رمز الثقافة التى لايجدر مثلها للوطن ويبحث الشــاعر هنا وراء الإصلاح والتغيير بتصور ثوروى والاستفهام عن ظروف المجتمع وثقافته، وأدى عن كلامه بلغة رمزية أى مزج البحر والشجر (النخــل) فنيا وصورهما، وامتزج هذان العنصران امتزاجا لايمكن تفريقهما بحيث يؤدى تفريقهما إلى إخلال فى المعنى.

دخلت إلى الشــعر المعاصر ألفاظ جديدة إثر ظاهرة الاقتران والامتزاج أهمها فيما يلــى: «الذاكرة، الموت، المــاء، الولادة، والدمّو...» اســتخدمت هذه الألفاظ الجديــدة كعناصر رئيســة فى الاقتــران الفنى فى خدمة معانــى الوطن وموقف الشعراء الثوروى.ينشد الشرقاوى:

إنّ الممات لدىَّ بذور الولادة
(الشرقاوى، ١٩٧۵م: ٣۵)

استخدم الشاعر الممات والولادة متقابلين ويرى الموت بذرة الولادة، لكن بما أنّ الشعر واقعى وفى خدمة الثورة، بإمكاننا أن نفسر الممات بالشهادة، أى الشهادة تؤدى إلى ولادة شخص آخر، وحضوره الثوروى ومن هنا تبقى النهضة أبدا وتديم حتى نبلغ الفوز والنصر.دخلت رموز الوطن أكثر من قبل فى الشعر لأن الشعراء البحرينيين مالوا إلى الواقع ثم اســتخدمت هذه العناصر (النخل، والبحر، والمرأة) جنبا إلى جنب إثر زيادة مستوى الوعى الفنى للشعر ومن ثمّ استخدمت مقترنات معا.

كان مزج العناصر وخاصة النخل والبحر يعتبر اقترانا مكانيا لوصف الطبيعة بادئ ذى بدء ونسمى هذا الارتباط بسيطا وساذجا ثمّ امتزجت فيما بعد مع المرأة امتزاجا غير مفكك يمثل دورا واحدا ويلقى معنى واحدا ونسميه الاقتران المركب.

النتيجة

الشــعور بالوحدة مع الوطن هو إحدى النتائج الفنية وإحدى مستويات الوعى الفنى الراقى، الذى يمكن تســميته بالمحور الأســاس فــى القصيدة الجديدة فى البحرين الوطن شــديد الصلــة مع النخل، والبحر، ومن ثم يتولــد الوحدة الفنية مع الوطن كما يســتخدم عنصر المرأة كوســيط بينهمــا، وبحضورها فى العناصر المذكــورة تدخــل العاطفة والحبّ فى هــذه الوحدة ولما مــزج الحبّ مع الوطن أعطاه معنى جديدا مبتكرا يموج فيه الإنســانية وشــعراء هذا الطور يبحثون وراء التغيير والإصلاح والثورة، وصحيح أنّ شــعرهم يشــبه تماما شــعر الأسلاف لكنه يختلف تماما من ناحية المعنى.فالحبّ عند الرومنطيقيين يعبّر عن تجربة الشاعر الشــخصية لكنه عند الواقعيين امتزج الحبّمع الشعور بالنسبة إلى الوطن وخرج عن التجربة الشخصية وصارت تجربة جماعية تتابع هدفا جماعيا.

يصور الشــاعر واقع المجتمــع ويعبر عن موقفه الثوروى والإنســانى ثم ينقل الشعور بالوحدة مع الوطن إلى مواطنيه.يتكلم الشعراء الواقعيين الجدد عن ظروف المجتمــع الداخلية ويهملــون الأجانب، يلهمون موضوعاتهم عــن الواقع لتغييره والوصول إلى واقعية أكثر جدارة وهو مرتبط أخيرا بالوطن فى كل أبعاد هو والآن نريد أن نعلم هل للوطن علاوة على بعده الاجتماعى وقضاياه الموجودة بعد آخر؛ وبعبــارة أخرى هل للوطن فى التجارب الشــعرية ولو واقعيــة بعد آخر غير البعد

الاجتماعی والواقعی؟ الجواب إیجابی؛ بل ولنقل أنّ أیة تجربة تسمی شعریة لما احتوت علی البعد الفنی إلی جانب الأبعاد الأخری.

المصادر والمراجع

حداد، قاسم. ۱۹۷۰م. دیوان البشارة. الطبعة الأولی. البحرین: الشرکة العربیة للوکالات والتوزیع.

حداد، قاسم. ۱۹۷۶م. الدم الثانی. الطبعة الأولی. البحرین: دار الغد للنشر والتوزیع.

حداد، قاسم. ۲۰۰۹م. إیقاظ الفراشة التی هناک. دمشق: دار نینوی.

الخاطر، مبارک. ۱۹۸۸م. نابغة البحرین. الطبعة الثانیة. البحرین: الشرکة العربیة للوکالات والتوزیع.

خلیفة، أحمد محمد. ۱۹۶۲م. دیوان هجیر وسراب. البحرین: لانا.

خلیفة، علی عبدالله. ۱۹۷۳م. إضاءة لذاکرة الوطن. الطبعة الأولی. بیروت: دار الآداب.

خلیفة، علی عبدالله. ۱۹۹۴م. أنین الصواری. الطبعة الثالثة. البحرین: دار الغد.

الرفیع، عبدالرحمن. ۱۹۷۰م. أغانی البحار الأربعة. الطبعة الأولی. بیروت: دار العودة.

الشرقاوی، علی. ۱۹۷۵م. الرعد فی مواسم القحط. الطبعة الأولی. البحرین: دار الغد.

العویناتی، سعید. ۲۰۰۲م. إلیک أیها الوطن إلیک أیتها الحبیبة. البحرین: فرادیس للنشر والتوزیع.

القائد، عبدالحمید. ۱۹۷۵م. عاشق فی زمن العطش. الطبعة الأولی. البحرین: دار الغد.

القصیبی، عبدالرحمن. ۲۰۰۱م. الأشجّ. بیروت: المؤسسة العربیة للنشر والتوزیع.

القصیبی، غازی عبدالرحمن. ۱۹۷۱م. معرکة بلا رایة. الطبعة الأولی. البحرین: دار الکتاب.

القصیبی، غازی عبدالرحمن. ۲۰۰۲م. للشهداء. الطبعة الأولی. عمّان: مطبعة الجامعة الأردنیة.

المعاودة، عبدالرحمن. ۱۹۶۰م. لسان الحال. الطبعة الأولی. بیروت: دار الثقافة.

ممتحن، مهدی. «الأدب النسائی مصطلح یتأرجح بین مؤید ومعارض». فصلیة دراسات الأدب المعاصر. صیف ۱۳۸۹ش. العدد۷. صص۱۳۵-۱۵۲.